الديوك كثيرة والمزبلة واحدة

المهندس سليمان هارون
نقيب المستشفيات في لبنان

في اواسط القرن التاسع عشر، تزامنت حربان اهليتان: الاولى في الولايات المتحدة الاميركية على خلفية تحرير او عدم تحرير الزنوج، والثانية في لبنان على خلفية نزاع طائفي.

اليوم، وبعد قرن ونصف، وبعدما تصالحت اميركا مع نفسها وانصهر فيها البشر من كافة الاعراق والديانات والمعتقدات، اصبحت اقوى دولة في التاريخ تمتد من المحيط الى المحيط في وحدة متكاملة ومتجانسة، بعدما اخذ سكانها العبرة مما حصل في ما بينهم من تقاتل.
اما في لبنان، وهو يكاد لا يضاهي حجماً وسكانا مقاطعة صغيرة في اصغر ولاية من الولايات المتحدة فما زال اهله يتقاتلون بين بعضهم البعض تارة بالسياسة وتارة بالعنف، وينبشون خلافات الماضي ويحيون شيطانه في مسلسل متكرر، وكأن لا احد فيه يأخذ اية عبرة من اية مأساة.
رب قائل ان المقارنة بين الاثنين لا تجوز، فالفرق شاسع في الحالتين ان في التاريخ ام في الجغرافيا. قد يكون هذا صحيحاً، الا ان وجه الشبه هو في ان كل منهما يجمع موزايكاً من البشر اتوا اليه من ثقافات واديان واعراق مختلفة.

فما الذي جعل اولئك يتعايشون مع بعضهم في انسجام وهؤلاء يتقاتلون تقريباً على كل شيء؟
والجواب هو ان في اميركا مساواة بين جميع المواطنين تحت سقف قانون مدني واحد، وفي لبنان تغيب هذه المساواة في ظل بدع وتفسيرات والتفافات على القانون.
البعض يقول ان الذنب هو ذنب الناس على قاعدة "كما انتم يولّى عليكم"، والبعض الآخر يلقي بالملامة على الزعماء. واهل السياسة لانهم يبدأون باستغلال الناس فور وصولهم الى المناصب .هذا جدل عقيم لا ينتهي.

فعلى مدى عقود واجيال، ترّسخت شيئاً فشيئاً وعلى مختلف المستويات ثقافة التسيّب والتفلّت حتى وصلنا الى حالة من الفوضى العارمة ادت الى استتباب شريعة الغاب حيث لم يعد احد قادراً على حماية الناس من بعضها البعض او حماية الطبيعة من شر الناس. لقد انهارت الدولة واخذت في جريرتها المجتمع، ونزل الناس الى الشوارع في حالة قاربت احياناً الهذيان عند البعض منهم.

ففي مظاهرة واحدة ترفع شعارات مختلفة ويصبح كل متظاهر خطيباً يحدد شروطه ومطالبه ومعالجاته بلهجة واثقة لا تقبل الجدل، وكأنه هو فجأة اصبح يملك الحقيقة وان على باقي المتظاهرين ان يتبّنوا مواقفه. فالتشرذم الذي نراه في تصرفات الذين ينزلون الى الشارع يذكرنا بالبلبلة التي تتسم بها اجتماعات اهل السياسةً سواء في جلسات الحوار او اجتماعات مجلس النواب او مجلس الوزراء. لقد املنا خيراً عند انطلاقة المظاهرات التي تندد بالفساد وبالطبقة السياسية، ولكن يبدو ان المتظاهرين قد استخفوا بقدرة هذه الطبقة السياسية على استيعاب هكذا تحركات؛ فبالرغم من التأييد الكلامي من بعض السياسيين للقضايا التي طرحها المتظاهرون، الا ان نواياهم الحقيقية كانت غير ذلك اذ استشعروا ان هذا التحرّك يشكل خطراً مشتركاً عليهم فعادوا يتحّينون الفرص للانقضاض عليه بشتى الطرق، وكل واحد وفق السبل المتاحة له.

لقد بدأت المظاهرات مع نواة صلبة من الشباب والشابات الجامعيين، اما طلابا واما متخرجين لا يجدون عملاً، فكانت صرخاتهم صادقة، وصوتهم واضحاً نقياً نظيفاً من الترّسبات الفاسدة التي تنخر المجتمع، هؤلاء اثبتوا ان الطينة التي جبل منها اللبنانيون هي طينة جيدة لا تعاني من اية تشوّهات خلقية، فالمشكلة لا تحمل بذورها عند الولادة، انما هي تأتي الينا لاحقاً بسبب ما هو عليه مجتمعنا من تدّهور في الاخلاق.

ولكن هذه "الانتفاضة " الشبابية سرعان ما تسللت اليها الروافد من هنا وهناك واغرقوها تحت سيل من الخلافات والمناكفات في مشهد فوضوي مؤسف. ان المجتمعات تتجدد وتتقدم بفضل قواها الشبابية، ونحن ندفع شبابنا الى القرف واليأس ومن ثم الهجرة فيبقى من تعّود على الواقع وارتضاه وتعايش معه وهو يعلم ان الامور سوف تسير لا محالة من سيء الى اسوأ!

ان الافق يبدو مسدوداً ولا سبيل للخروج من هذه الدوامة الا بمعجزة ما. المعجزة سوف تحصل عندما يبدأ اللبنانيون باحترام قانون واحد ويعيشون تحت سقفه متساوين في الحقوق والواجبات، وان يتواضعوا ويخففوا من الصياح في وجه بعضهم البعض، فنحن كلنا نعيش في نفس المزبلة.